

يكن من أولئك الذين أعجبوا بالتراث بثقة عمياء. لقد قدم يوسف القرضاوي دراسة مهمة (9) بعنوان: نحو اجتهاد إسلامي معاصر، كشف عن أهمية الاجتهاد، مناقشاً بعض الآراء المقدسة للتراث، يقول: "ربما يذهب بعض المشتغلين بالعلوم الإسلامية- لفرط إعجابهم بتراثنا الحافل، وفرط ثقتهم بفقهائنا العظام- أننا لسنا في حاجة إلى اجتهاد جديد" ويرد على هذا الزعم قائلاً: "ونحن لا نقلل من قيمة تراثنا الحافل، ولا من عظمة فقهاءنا، بمدارسه المتعددة ومشاربه المتنوعة وما فيه من اجتهادات واقعية أو افتراضية. ولكن الحق أقول: إنه من المبالغة وتجاهل الواقع، الادعاء بأن الكتب القديمة فيها الإجابة عن كل سؤال جديد".

والواقع أن هذا الرأي هو بداية التوجه الصحيح نحو مناقشة هذه القضية مناقشة جهرية، ولا نجانب الصواب إن قلنا إنها ليست بالمهمة السهلة ولا المستحيلة، إلا أنها تستوجب هضماً جيداً حتى يمكن تكييفه مع الأوضاع الجديدة للمجتمع الإسلامي.

ومن هنا يصبح الاجتهاد مطلباً أساسياً في فكرنا المعاصر، ويقتضي أن يصبح مؤسسة معرفية مهمة تلعب دوراً ثلاثياً في حياتنا اليومية. وفي هذا الإطار وجه يوسف القرضاوي العناية إلى أن يكون "اجتهاداً جماعياً في صورة مجمع علمي يضم الكفايات الفقهية العالمية، ويصدر أحكامه في شجاعة وحرية بعيداً عن كل المؤثرات والضغوط الاجتماعية والسياسية، ومع هذا لا غنى عن الاجتهاد الجماعي، بما يقدم من دراسات عميقة، وبحوث أصيلة مخدومة، بل إن عملية الاجتهاد في حد ذاتها عملية فردية قبل كل شيء (11)

إن الاجتهاد بهذا المنظور ضرورة وحاجة لتجاوز المشاكل المعاصرة التي تقف عائقاً أمام التطور الاجتماعي والثقافي والفكري والعلمي، ويخفف من حدة التخلف والقصور الفكري. "على أن الاجتهاد لا ينحصر في دائرة المسائل الجديدة، بل له مهمة أخرى مع التراث الفقهي، لإعادة النظر فيه على ضوء ظروف العصر وحاجات الناس لاختيار أرجح الآراء، وألبيها لتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، بناءً على قاعدة تغير الزمان والمكان والإنسان" (12).

لقد ركز القرضاوي على الجانب العلمي والجانب الاقتصادي، ويعني هذا إهمال الجانب الفكري والروحي ودورها في كل رؤية مستقبلية؛ لأن المجتمع العربي الإسلامي عرف أوضاعاً جديدة لم يعرفها المسلمون الأوائل، وقد ولد هذا فراغاً روحياً بسبب عدم وجود مدرسة فلسفية لهذا المجتمع المعاصر.